

مقبرة سيدي بوجمعة ونساء عين الصفراء (النعامة-الجزائر)

علي نابتي⁽¹⁾

مقدمة

تعتبر ظاهرة التعلق البشري بالأمكنة من الرمزيات القوية في عالمنا المعاصر، ولئن اختلفت وظائفها وتعددت في الفضاء الواحد إلا أنّها تتقاطع في قدرتها الهائلة على جمع الناس وتجنيدهم حول قضية معينة. سبق وأن أثار هذا البعد علماء اجتماع مثل فيليب سان مارك Saint Marc Philippe الذي حاز السبق في إثارة فكرة التطويع الاجتماعي للفضاءات الطبيعية من خلال مظاهرها العمومية والسياسية¹. وفي السياق ذاته، اقترح لوي كيري Louis Quéré بعض الباراديجمات لتجديد تناول عبارة "الفضاء العمومي" وذلك بالتركيز على تجديد نماذج القراءة بالبحث عن موائمة بين البعد المفاهيمي والبعد الملموس والمحسوس للفضاء العمومي، وذلك بالانطلاق من سياق ظهوره².

أما الباحثتان جاكلين كاندو Jacqueline Candau وسوفي لوفلوش Sophie le Floch فقد أبديتا اهتماماً بأماكن الفضاء الريفي، خاصة تلك المتميّزة بالاختلاط الاجتماعي والمبادلات المدنية في ظلّ القيم المشتركة³. تكشف لنا هذه المقاربات عن

(1) Université Moulay el Taher, 20 000, Saïda, Algérie.

¹ Milton, S. (1997), *La nature de l'espace*, traduit par Marie-Hélène Tiercelin, Paris, Éd. L'Harmattan.

² Quéré, L. (1995), *L'espace public comme forme et comme évènement*, Paris, Éd. R. Plan Urbain, p. 93-110.

³ Berdoulay, V. (2004), *L'espace public à l'épreuve : régressions et émergences*, Éd. MSHA, p. 9-25.

تنوّع الأمكنة المؤهلة لأن تصبح فضاءات عمومية ذات اختصاصات، فالتنوع ناتج عن اتساع الفضاء العمومي بتعدد الشبكات والتحوّلات المرتبطة بفضاءات الحياة، أما التّخصّص فمرده للأشكال التي قد توظف فيها رموز اجتماعية وثقافية ودينية ذات تأثير قويّ على أفراد المجتمع.

ضمن هذا المنظور، تتناول هذه الدراسة البحث في العلاقة بين ظاهرة زيارة المقابر ودورها في تشكيل فضاء عموميّ من منطلق إعادة التفكير في الواقعة العموميّة (لقاء المكان والجمهور) بغية استكشاف وتفسير مختلف أوجهه وكيفية إنجاز العمليات الاجتماعية في مختلف أبعادها والطرائق التي يتفاعل بها زوار المقابر، لاسيما جمهور النساء بوصفهن الأكثر ترددا على مثل هذه الأمكنة المقدّسة.

فزيارة المقابر تُعدّ من أقدم الممارسات الاجتماعية الدينية التي دأب الناس عليها إذ تعتبر المقبرة بؤرة التواصل الرّمزي والوجدانيّ بين الحيّ والميّت. ضمن هذا السياق أفضت ظاهرة التّردّد المستمر عليها إلى تناولها بوصفها من الأماكن العموميّة المختلطة التي تخضع زيارتها لتوقيت وتقسيم فضائي. وحيث يقضي الفقه الإسلامي إعفاء المرأة من المشي في المواكب الجنائزية وحضور مراسيم دفن الميّت مع الرجال في المقبرة، إلا أنّ حضور النساء في المقبرة يتدفق بقوة بداية من صبيحة اليوم الموالي للدفن ضمن أشكال اتصال تفاعلية رمزية، ومنذ ذلك الحين يصبح الأكثر ترددا على المقابر لزيارة تستمر لساعات، وبالأخص يوم الجمعة وفي المناسبات والأعياد الدينية.

انطلاقا من هذه الملاحظات الأولية نطرح الأسئلة التالية: هل أصبح تردد النساء على المقابر اليوم يعني مجرد زيارة الموتى؟ ثم ألا تؤشر ظاهرة مكوثهن المطول بها إلى وجود "إشباع" ذي منافع متعددة غير الوظائف الظاهرة للمقبرة؟ ضمن هذه الرؤية، تحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذه التساؤلات وذلك بإجراء تحقيق ميداني بمقبرة سيدي بوجمعة الكائنة بمدينة عين الصفراء (ولاية النعامة)، حيث تُعتبر من المقابر العريقة في الجنوب الغربي الأعلى من الجزائر⁴. بعد عرض منهجية بحثنا وتقديم لمحة تاريخية عن مقبرة سيدي بوجمعة، سنقوم أولا بعرض من ملاحظتنا الميدانية في هذا الفضاء، ثم عرض أهم الأسباب

⁴ الدراسة موضوع المقال هي تحيين لدراسة ميدانية أجراها الباحث عام 2008 لنيل شهادة ماجستير في علم الاجتماع من جامعة مستغانم.

والدوافع الكامنة لمكوث نسوة مدينة عين الصفراء بمقبرة سيدي بوجمعة لنختم بذكر بعض "الفوائد العملية" كما صرحت هؤلاء النسوة. هذه المعطيات تبين لنا كيف أنه خلف الوظائف الظاهرة لهذا الفضاء (زيارة الموتى وضريح الولي) توجد وظائف أخرى، كامنة، ذات طابع "دنيوي".

في المنهجية

تم اختيار مقبرة سيدي بوجمعة كمجال للدراسة من منطلق تفرداها عن باقي مقابر المنطقة بثلاث ممارسات: الممارسة الأولى تبدأ بزيارة النساء لقبور موتاهن، ثم تليها زيارة قبة ضريح الولي سيدي بوجمعة، والممارسة الأخيرة تتمثل في حرص غالبية الزائرات على المكوث لأوقات مُتباينة بالفضاء المحيط بالمقبرة والقبة. تستهدف هذه الدراسة البحث عن العلاقة بين مكوث النساء بفضاء سيدي بوجمعة ومضامين التفاعل بينهن بوصفها مؤشرات قد تقودنا إلى تبيان خلفيات هذا الحضور الأنثوي العريق.

بدأ العمل الميداني خلال أيام الجمعة من كل شهر، بداية من شهر أكتوبر 2012 إلى غاية شهر أبريل 2013، حيث تم استخدام المقابلات الحرة والاستمارة⁵ كأداتين لجمع البيانات. ولضمان السير الحسن للدراسة الميدانية، تمت الاستعانة بفريق بحث مكون من عشر طالبات جامعيّات لمتابعة إجابة المبحوثات على الأسئلة من جهة، والملاحظة بالمشاركة من جهة أخرى.

بالنسبة لمجتمع البحث، فهو يتكون من جماعة النساء الموظبات على زيارة مقبرة سيدي بوجمعة وزيارة ضريح الولي والماكثات بالفضاء المحيط بها حيث بلغ عددهن 120 مبحوثة، 57,5% منهن ألفن التردد على قبة سيدي بوجمعة منذ أكثر من ثلاثة عشر عاما.

بالنسبة لخصائص مجتمع البحث، يمكن عرضها في النقاط التالية:

- السن: بالنظر إلى الحرج والتمنع الذي أبدته غالبية المبحوثات، فقد تم الاستعانة بالإخباريات والاعتماد على ملاحظات الباحثات الميدانيات في "كشف" سنهن، وقد تم تقدير الفئة العمرية الأكثر حضورا بين 30 و45 سنة.

⁵ تناولت الاستمارة ثلاثة محاور: تفاعل النساء الزائرات مع مقبرة سيدي بوجمعة والفضاء المحيط بها، أسباب ودوافع مكوثهن في هذا الفضاء والتعرف على الفوائد العملية المحققة من ذلك.

– **الحالة العائلية:** توضح البيانات في هذا المجال أنّ النساء المتزوجات كن على رأس القائمة بنسبة 35,83% تليهن النساء غير المتزوجات بنسبة 32,5%. أما المطلقات فقد وصلت نسبتهن إلى 22,5% والأرامل 9,16% من مجموع المبحوثات.

– **مستوى التعليم:** على الرغم من رسوخ سمة الأمية في ظاهرة التوافد الشعبي على قباب الأولياء، كما هي الحال في مجتمع الدراسة حيث بلغت نسبة الأميات 56,66%، إلا أن الجديد في البيانات هو وجود نساء متعلمات إلى جانب هذه الأغلبية الأمية إذ تم رصد وجود جامعيات بنسبة 6,66%، ثم نساء لهن مستوى الثانوي بنسبة 7,5%، في حين كانت نسبة النساء اللائي زاولن تعليماً متوسطاً 10%، أما نسبة النساء اللائي توقفن عند المرحلة الابتدائية فوصلت إلى 19,16%.

– **المهنة:** تنتمي غالبية المبحوثات إلى شريحة النساء الماكثات بالبيت والعاطلات عن العمل، حيث سجلت الدراسة وجود نسبة 62,5%. أما النساء العاملات فبلغت نسبتهن 37,5% يتوزعن على قطاعات الإدارة، التعليم، الصحة والتجارة.

مقبرة سيدي بوجمعة: موقع، ذاكرة وتاريخ

تقع مقبرة سيدي بوجمعة على امتداد الضاحية الغربية لإقليم قصر "سيدي بو دخيل" وتتوسط مجرى وادي "البريج" ووادي "المويلح". كما يمتد جسرٌ ليسهل التواصل وحركة المرور بين قصر "سيدي بو دخيل" وحيّ "سيدي بوجمعة" وحيّ "بو مريفق". تستمد مقبرة سيدي بوجمعة أهميتها من حيث كونها ثاني أعرق مقبرة بمدينة عين الصفراء بعد مقبرة قصر "سيدي بو دخيل" التي تمت إزالتها مطلع سبعينيات القرن الماضي. ويمكن القول أنّ مقبرة سيدي بوجمعة يتخطى عمرها ما يزيد عن قرن من الزمن وهو ما جعلها حاضنة تاريخية ووجدانية لأجيال تخطت عتبة القرن بالنظر إلى مساحتها الشاسعة التي تكاد تغطيها القبور، ولا يزال يدفن فيها الموتى إلى اليوم. تبرز الأهمية الثانية لهذه المقبرة في احتضانها لمزارقبة ضريح الولي سيدي بوجمعة خلف سورها الشرقي حيث يعرف الإقبال الشعبي عليه تواصلاً مستمراً منذ أواخر القرن 19م. أما

الأهمية الثالثة فتتلخص في المناظر الطبيعية التي يمتاز بها الفضاء المحيط بالمقبرة والتي أهلته ليُدرج ضمن القائمة الوطنية لمناطق التوسع السياحي إذ يتربع على مساحة 52,5 هكتارا⁶.

بالنسبة للوثائق التاريخية التي تناولت مقبرة سيدي بوجمعة وقبة الولي، لا توجد سوى نصوص يعود تاريخها إلى مطلع القرن العشرين، وهي للصحفية والأديبة إيزابيل إيبرهاردت⁷، إلا أن الرواية الشعبية تؤكد على عراققتها.

لقد ذكرت إيزابيل إيبرهاردت مقبرة سيدي بوجمعة عندما كانت في طريقها إلى قصر الصيفيصة (60 كلم غرب عين الصفراء). واستعرضت في مقال موسوم بـ "موت إسلامي"⁸ مراسيم دفن ميّت، ونقلت لنا مشهدا لتوافد زوار على قبة سيدي بوجمعة ركّزت فيه على النساء بقولها: "تنتصب قبة سيدي بوجمعة الصغيرة على طريق بن يعو والصفيصيفة".

لقد توقفت واقتربت من القبة ونقلت لنا هذا المشهد: "يقف عرب حول القبة، زوار جاؤوا من بعيد طلبا لحماية الولي الكبير، تجمعوا منذ طلوع النهار، صلوا مطولا بحركات جميلة رخيمة من الشعيرة الإسلامية، تجعل المتواضعين عظاما". ثم تخبرنا الكاتبة بأن هؤلاء الزوار كانوا من البدو: "خلف السور الصغير المحيط بالقبة، تحيط نسوة حول نار قد خبا جمرها، يتبادلن أطراف الحديث،

⁶ Monographie de la Wilaya de Naâma (2005), situation des zones à expansion touristique, p. 118.

⁷ هي إيزابيل ولهيلمين ماري إيبرهارت Isabelle Wilhelmine Marie Eberhardt. ولدت بالقرب من جنيف السويسرية في 17 فبراير 1877. حلّت بمدينة عين الصفراء نهاية سبتمبر 1903، في الأعوام الأخيرة لثورة الشيخ بوعمامة. لتغطية حصيلة معركة "المنقار" لفائدة جريدة الأخبار. تكشف اهتماماتها الصحفية والأدبية عن شغفها بدراسة حياة الجزائريين عن قرب. توفيت إيزابيل إثر فيضان وادي عين الصفراء في 21 أكتوبر 1904 ودُفنت بمقبرة سيدي بوجمعة. لم تنشر قط كتاباتها بالمطبعة خلال حياتها حيث لا توجد أي طبعة أصلية. تعرف القراء عن كتاباتها الأصلية لأول مرة بفضل جهود ومساعي الصحفيان الفرنسيان ماري أوديل دي لاکور Marie-Odile Delacour وجان روني إيلو Jean-René Huleu بالرجوع إلى مخطوطاتها المحفوظة بمركز الأرشيف بمدينة أكس آن بروفانس الفرنسية ولقالاتها الصادرة بالصحافة الكولونيبالية قبل وفاتها. صدرت سنة 2003 موزعة في أربعة كتب بمناسبة مرور مائة عام على رحيلها (1904-2004) عن دار جويل لوسفيد Joëlle Losfed. حول سيرتها مُفصلة أنظر:

Roux, Ch. (2003), *Isabelle du désert*, Paris, Grasset Edmonde.

⁸ Eberhardt, I. (2002), *Sud Oranais*, Composées par Marie Odile Delacour et Jean-René Huleu, Paris, Éd. Joëlle Losfed, p. 174-176.

هن بدويات جنن مع رجال من قبيلتهن، إنهن متسترات وبالكاد يُظهرن وجوههن".

أما بخصوص شخصية سيدي بوجمعة، فهناك فقط معلومة مقتضبة في مونوغرافيا دائرة عين الصفراء لسنة 1949: "يوجد بمغرار الفوقاني قبتان في شكل عمران رديء. إحداهما خاصة بسيدي عبد القادر الجاللي، أما الأخرى فتحمل اسم سيدي راشد، ولي جاء من قورارة رفقة إخوانه الستة، أولياء مثله. وافته المنية بمغرار الفوقاني ودُفن فيها. فيما توزعت قباب إخوته على نقاط مختلفة: سيدي معمر بالصفيفيصة، سيدي بوجمعة بعين الصفراء، سيدي عبد الله في إيش، سيدي مولاي مكتوبة بدرمل، سيدي عيسى بقصر بني ونيف سيدي مومن في جبل بشار"⁹.

وفي ظلّ شح المعلومات حول سيدي بوجمعة، جاز لنا تصنيفه في خانة "الأولياء المجهولين" على حد تعبير أ. درمنغهم E. Dermenghem¹⁰.

ملاحظات ميدانية في فضاء سيدي بوجمعة

سنعرض في هذا الجزء بعض الملاحظات الميدانية تتعلق بمكوث النساء بفضاء سيدي بوجمعة. يبدأ توافد النساء على مقبرة سيدي بوجمعة عقب صلاة كل يوم الجمعة، فمجيئهن أثناء هذا الموعد يكون بعد تقديم وجبة الغداء للأسرة. ولوحظ تردد نساء من مختلف الأعمار، معظمهن لا يتجاوز سنهن الأربعين والخمسين سنة، جنن ضمن ثنائيات وضمن أفواج يفوق عدد أفراد بعضها الثمانية، جاءت غالبيتهن راجلات على الرغم من بُعد أحيائهن عن المقبرة والمزار. ولوحظ أنّ أكثرهن بحوزتهن هواتف خلوية كما أحضر بعضهن آلات تصوير (شابات في العشرينيات والثلاثينيات من العمر). وهؤلاء النسوة تجتمعن إما علاقات القرابة والمصاهرة، أو الصداقة والجيرة. وتعتبر زيارة مقبرة سيدي بوجمعة أهم فرصة للقائهن قبل توغلهن خلف سكنات العائلة المشرفة على القبّة، للوقوف على ضريح الولي. وبينما كان لباس "الحايك" سائدا في الماضي، انتشر حاليا الحجاب بمختلف أنواعه و"الجلابة المغربية" والألبسة العصرية ناهيك عن استخدام وسائل

⁹ Monographie du Cercle d'Ain Séfra (1949), *le culte à Moghrar Fougani*, p. 32.

¹⁰ Dermenghem, É. (1954), *le culte des saints dans l'islam maghrébin*, Paris, Éd. Gallimard.

اتصال حديثة، مما جعل النساء المسنات يبيدين تذرهن من "تمرد الشابات" و"جموح بنات اليوم".

تفيد السيدة (ز) بوابة ضريح سيدي بوجمعة وبعض الإخباريات من النساء المسنات بأن مكوث النساء بهذا الفضاء بعد زيارة القبور لم يكن في الماضي بهذا الشكل الملفت للانتباه، لقد كان مرتبطاً بإحياء الحضرة النسائية في المناسبات الدينية أو الخاصة، وكان خاضعاً للضبط الاجتماعي. أما اليوم فالملاحظ هو انتشار مجموعات من النساء، مباشرة بعد خروجهن من المقبرة وفراغهن من طقوس زيارة ضريح الولي، إذ يتجمعن في فناء القبة فيما تتجه أخريات صوب الكتيب الرملي الواقع خلفها، نساء أعمارهن متباينة تتراوح ما بين الثلاثين والأربعين سنة، مع تسجيل حضور ضئيل للرجال والفنية المرافقين لبعض النساء. فما الذي يدفعهن للبقاء في هذا الفضاء المحلي؟

مكوث النسوة بفضاء سيدي بوجمعة: الأسباب والدوافع

توحي ظاهرة المكوث المؤقت لأعداد معتبرة من نساء البلدة بفضاء سيدي بوجمعة عقب زيارة القبور وزيارة ضريح الولي بوجود دوافع وأسباب تختفي وراء إصرارهن على البقاء فيه لفترات زمنية متباينة. ومن الواضح بجلاء أن استقرارهن المؤقت في هذا الفضاء المحلي يعتبر استثماراً ثميناً للحظات تواجدهن خارج منازلهن، وتبدو غاية الترفيه والترويح عن الذات الأنثوية كأهم دافع معلن أجبن به عن سؤالنا الافتتاحي: "رَأَا قَاعِدِينَ نُفُوجُو" (نحن جالسات للترويح). هذا ما يمكن اعتباره الوظيفة الظاهرة لهذا المكان العتيق.

لكن إجابات المبحوثات عن أسئلة الاستمارة كشفت عن جملة من الدوافع الأخرى للبقاء في فضاء سيدي بوجمعة أولها معرفة ماذا يحدث في المدينة؟ (33,38%). لكن نسوق في البداية مضمون "إجابات أخرى" من الاستمارة:

- "حتى أبتعد عن تلك الوجوه القذرة"؛
- "أجد فيه راحتي، يساعدني على تفريغ الغيظ الذي يسكنني"؛
- "كلما جئت هنا، أطمئن بأنني لن أصبح مجنونة"؛
- "المكان جد ملائم لألقى فيه من أرتبط به"؛
- "تمضية الوقت"؛
- "أقلد الأخريات".

هذه الإجابات هي لمبحوثات يعبرن عن معاناة نفسية ناجمة عن ظروف ومشاكل متعددة (الغنوسة، ضغط الزوج،...)، ويمكن أن نفسر هذه الإفشاءات، وبخاصة الأسباب الثلاثة الأولى مجتمعة، على أن المكوث بسيدي بوجمعة يمنح لهؤلاء النسوة راحة نفسية من مختلف الضغوط الاجتماعية، فهذا المكان يمنحهن القدرة على ضبط المزاج بالترويح على الذات المعذبة، وهو ما يُشعرهن بالراحة ويساعدهن على مواجهة الضغوطات من خلال التفاعل مع بقية الزائرات أو بالنظر فقط إلى الطبيعة.

تسهم هذه الوظيفة السيكولوجية في تلطيف الجو النفسي الاجتماعي إذ هي عملية تشبه "وضع الزيت في الدواليب" فتجعل النساء يحافظن على توازنهن العقلي والنفسي، ولنتأمل في تصريح تلك المرأة الشابة التي رأت في مكوثها وجلوسها على رمال سيدي بوجمعة وقاية لها من الجنون...
يحدد الجدول رقم 01 أهم الأسباب والدوافع فيما يتعلق بمكوث النساء بفضاء سيدي بوجمعة مرتبة تنازليا حسب عدد مرات تكرارها بين أكثر من سبب واحد:

جدول 01: أسباب ودوافع مكوث النساء بمقبرة سيدي بوجمعة

النسبة الكلية للمبحوثات	%	أسباب ودوافع مكوث النساء
100%	38,33	معرفة الأخبار المحلية
100%	35	مكان جد مناسب لتجمع الأسر
100%	33,33	ألتقي بقريباتي وجاراتي القديمات
100%	26,66	الاستراحة من أعباء البيت
100%	25	يلعب أطفالى ويمرحون
100%	17,5	أبحث عن فرصة للزواج
100%	12,5	ليس لى أقارب في المدينة

- معرفة الأخبار المحلية

من الملاحظ أن المكوث المؤقت للنساء بفضاء سيدي بوجمعة أضحي نشاطاً اجتماعيا مهماً لهنّ من خلال رغبتهن في استطلاع أخبار المدينة وكذلك باعتباره فرصة سانحة لتحصيل عدد من أشكال المنفعة الشخصية كمعرفة مواعيد تلقيح

الأطفال، وأهمية بعض السلع الاستهلاكية من أطعمة وأدوية ناهيك عن أخبار الوفيات أو الموالييد وما إلى ذلك من الأحداث الهامة في حياة المدينة، وغيرها من الحوادث الصعبة والمؤثرة. فسعي النساء المتواصل إلى استقصاء الأخبار واستقاء المعلومات من ناحية، وتفاعلهن إثر مختلف الموضوعات المثارة من ناحية أخرى لا ينفصلان عن وجود تأثيرات التوجيه والإقناع التي يمارسها بعض النساء، وبخاصة ذوات المستوى التعليمي والمهن المتصلة بشؤون حساسة كالصحة والشؤون الإدارية وغيرها، فمثل هذه الخصائص تُثري ثقافة النساء بالمعلومات الجديدة. لقد أصبح فضاء سيدي بوجمعة في ظل تطور هذه الخاصية الإخبارية مصدراً محلياً للإعلام، تُثار فيه موضوعات يلتف حولها النسوة للحديث والمناقشة، لكن متى كان الموضوع متخصصاً يكتفي أغلب النساء بطرح الأسئلة ثم الإمعان في الاستماع إلى الأجوبة والتوجيهات. وهناك مواضيع توحد انفعالهن فتتحول الدوائر والثنائيات، معنوياً ورمزياً، إلى جماعة أكثر تماثلاً وتجانساً¹¹ بل ووحدة يجمعها نفس الشعور، لاسيما عند إثارة أحاديث حول الوفيات أو الجرائم والفضائح وغيرها.

- تعزيز الألفة والروابط الاجتماعية

تُحضّر النساء ضمن مجموعات صغيرة غالبيتها تكون تحت قيادة امرأة من الكبيرات أو المسنات. لقد خرجن من بيوتهن في سياق ألفة اجتماعية تدعى محلياً "رفاقة" وهي مجموعة أو زمرة من القريبات أو الجارات أو الصديقات، يأتين عادة من نفس الحي. لوحظ كذلك أنّ الروتين والآلية الطبيعية هي ما يطبع الالتقاء النسائي بالمقبرة أو خارجها ثم تسري حرارة التفاعلات شيئاً فشيئاً، بدءاً بالعناق والتقبيل والسؤال عن الحال، ثم تشرع النسوة في بناء الشكل الاجتماعي من خلال أخذ مكان في فضاء سيدي بوجمعة ومباشرة الحديث.

وعلى صعيد آخر رصدت الدراسة وجود حالات نسائية انفرادية بأعداد قليلة يُفضّل الخلوة وتأمل الطبيعة (10%). لكن بالنسبة لعموم النسوة الزائرات، يعتبر المكوث بفضاء سيدي بوجمعة خلال هذه الفترة الزمنية أمراً حيويًا بالنسبة لهن،

¹¹ Voir Goffman, E. (2008), *Les Rites d'Interaction*, (rééd.) (1974), traduit par Alain Kihm, Éd. de Minuit.

فلقد اعتبرت إحدى المبحوثات أنّ يوم الجمعة ليس يوم زيارة وراحة فحسب، بل كذلك "يوم حرية" بالنسبة للنساء الماكثات في البيوت.

- نزهة للأطفال

تمتد التفاعلات الاجتماعية في فضاء سيدي بوجمعة لمنح فئة ترافق عادة أفواج النساء فرصة تأكيد وجودها بكل عفوية وبراءة، إنهم الأطفال، ذكورا وإناثا، إذ تمت ملاحظة تواجدهم بأعداد مهمة. ويبدو أن إحصار الأطفال لفضاء سيدي بوجمعة للنزهة أصبح عنصرا أساسيا في الحياة الأسرية المحلية. تصرح إحدى الأمهات: "كنت في الماضي أمكث في سيدي بوجمعة لذاتي، ولكن عندما تزوجت وأنجبت أطفالاً أصبحت أفعل ذلك من أجلهم، رغم أنني أكون متعبة أو مشغولة، أجتهد في الحضور والمجيء بهم للعب والمرح. إنّ سعادتني هي أن أرى الأطفال سعداء".

- البحث عن زوج

عبرت نسبة مهمة من المبحوثات (17,5%) أن الغرض من تواجدهن بفضاء سيدي بوجمعة هو البحث عن زوج. ومن الملاحظ أنّ صاحبات هذا الدافع لا يدخرن أي جهد قصد "الترويج" لمواصفاتهن الشخصية وإمعانهن في التفاعل المباشر مع باقي النساء مما قد يجعلهن محط أنظار وإعجاب واهتمام بعض أمهات أو أخوات الرجال. تقول إحدى الجامعيات في مقابلة حرة: "بعد الزواج تكون المرأة خلف الرجل لتساهم في بناء عظمته، ولكن السؤال المطروح: أين يكون الرجل قبل الزواج؟ أعتقد أنّ الأجدد بنا البحث عنه في سيدي بوجمعة، قد منح لغيرنا من النساء أزواجاً، إننا نرى ذلك الرجل الفرصة من خلال أمه أو أخته!".

وتصرح امرأة أخرى (غير متزوجة) شرعت في التردد على فضاء سيدي بوجمعة منذ عامين: "لم أكن أخرج إلا نادراً لأنّ عائلتي محافظة، يبدو أنّ الإفراط في تقييدي ودعاء المرحوم والدي علي بالستر هما السبب في عنوستي، استجاب الله فسترني فلم يرني الناس في أيام شبابي اليانع، ولكنني لم أفقد الأمل".

تعكس هذه التصريحات بجلاء نوعاً آخر من الوظائف الكامنة وراء مكوث بعض النساء في سيدي بوجمعة، في حين أنّ نساء الأمس لم يكن بوسعهن البوح بمثل هذا السبب المصنف ضمن خانة طابوهات النظام الاجتماعي التقليدي.

- الإدماج الاجتماعي في المدينة

من بين المترددات على فضاء سيدي بوجمعة نساء غريبات عن المدينة (12,5%)، جئن مع أزواجهن في إطار العمل وفقدن الاتصال العائلي المباشر، فرحن يبحثن عن بدائل للتخفيف من آثار هذا الانقطاع الاجتماعي. لقد كانت فرحتهن عارمة عند اكتشافهن فضاء سيدي بوجمعة، ونسوق في هذا المقام تصريحاً لإحدى هؤلاء النسوة وهي من الجزائر العاصمة: "كنت خلال الأشهر الأولى من إقامتي في عين الصفراء مع زوجي (...) جد متأثرة بالابتعاد عن أهلي، ولكن سرعان ما علمت بوجود قبة سيدي بوجمعة بفضل جارتني، فلقد تغلبت على ذلك الأسى منذ ثلاث سنوات عندما تعرفت على نساء خلال مكوثي بسيدي بوجمعة وصرن من أعز صديقاتي".

لقد أصبح توافد النساء على سيدي بوجمعة والمكوث بفضائه فعلاً ومظهراً ملفتاً ومثيراً للانتباه، وهو ما تعكسه تلك الأسباب والدوافع بل أضحى حضاناً للمقدّس والدينيويّ معاً. وفي إطار تفاعلات الوظائف الكامنة لهذا الفضاء، والتي تجد ديناميكيته من التطوير الذي أبدعه زائرات اليوم على استخداماته المعهودة، فإنّ القيم والاهتمامات والروابط والأدوار الاجتماعية في هذا الوسط النسائي بامتياز تحوّلت إلى عوامل أساسية مكنتهن من التصرف اجتماعياً ليس بالخضوع لاعتباطية الظروف، ولكن أيضاً بالقدرة على اختيار وانتقاء ما يتسق مع اهتماماتهن ومصالحهن. هذا ما سنبيّنه في الجزء الموالي من المقال.

فوائد عملية

يعرض الجدول التالي جملة من الفوائد العملية من وراء مكوث مجموعة من المبحوثات (89 مبحوثة) بفضاء سيدي بوجمعة:

جدول 02: فوائد عملية

النسبة الكلية للمبحوثات	%	الفوائد العملية
100%	85,39	مزاولة مواعيد تلقيح الأطفال بانتظام
100%	77,52	الإفادة من نصائح تنظيم صحة الأم والطفل
100%	61,79	علمت بترشح أحد أبناء منطقتنا
100%	34,83	تشجعت على الانضمام إلى دروس محو الأمية
100%	15,73	حققت روابط صداقة ومصاهرة
100%	8,98	أجري وأستقبل مكالمات بهاتفى الخلوي في جو هادئ
100%	3,37	أجنى ربحاً من بيع مناديل وعلطور وملابس وأحذية النساء
100%	2,24	أجنى ربحاً من بيع مواد الزينة التقليدية وأعشاب الطبخ والطب

ترى هؤلاء المبحوثات أنهن لمسن شخصياً فوائد من خلال مكوثهن المؤقت بفضاء سيدي بوجمعة، وبخاصة حول موضوعين هاميين: الصحة والتعليم. فبالنسبة للموضوع الأول، تندرج فوائد العلم بمواعيد تلقيح الأطفال والإلمام بالثقافة الصحية خاصة ما تعلق منها بالأم والطفل ضمن أهم أهداف الحملات الإعلامية للقائمين على الاتصال الاجتماعي في ميدان الصحة، حيث تجند الدولة إمكانيات مالية ولوجيستية مهمة حتى يتكيف المواطنون مع خطط التنمية الاجتماعية الصحية، فتصبح الوقاية سبيلهم للحد من انتشار الأمراض والوفاة الناجمة عن الإهمال أو الجهل بمزايا الإفادة من تلك الحملات في مواعيدها المحددة. ومن منطلق هذه الأهداف السامية، ومن حيث ارتكازها الأساسي على الإعلام والاتصال، يتجلى لنا مدى أهمية شيوعها في أوساط النساء المترددات على فضاء سيدي بوجمعة، ولقد أوضحت البيانات الواردة ضمن الجدول السابق كيف أن غالبية المبحوثات يقصدن من مكوثهن بهذا الفضاء استقصاء الأخبار واستقاء المعلومات.

وتوضح البيانات أن النسبة الغالبة من المبحوثات المعنيات بالإفادة من موضوعات تلقيح الأطفال وصحة الأم والطفل، هن من المتزوجات ومن المطلقات ليليهما عدد قليل من الشباب المقبلات على الزواج إذ يعتبرن ذلك ضرورة تثقيفية تدخل ضمن تأمين سلامة الصحة في مستقبلهن الزوجي.

وعلى صعيد آخر تشير البيانات إلى أن تلك الغالبية من النساء ينتمين إلى فئة الأميات وذوات المستوى التعليمي المنخفض، ومعظمهن من العائلات الفقيرة، حيث أن مواظبة النساء على زيارة مقبرة سيدي بوجمعة وحرصهن على المكوث بفنائها يجعلهن يتعرضن لمواقف متباينة عند إثارة المحادثات الجادة، ويكفي أن نشير إلى أن اعتماد النساء على فضاء سيدي بوجمعة بوصفه مصدراً من مصادر المعلومات يمثل قناعة مشتركة بالنسبة لغالبية المبحوثات.

لقد كشفت الدراسة وجود موضوع ثان من صنف موضوعات الاتصال الاجتماعي، إذ يتعلق الأمر بالالتحاق بدروس محو الأمية (34,83% من النسوة المعنيت بالإفادة). فهذا المسعى التنموي الاجتماعي لا يقل أهمية عن موضوع صحة الأم والطفل خاصة بوجود برامج للدولة لمحو الأمية من خلال المركز الجزائري لمحو الأمية وتعليم الكبار، وبالتنسيق مع الجمعية الوطنية "اقرأ". لقد ألقى هذا الاهتمام الرسمي والجمعي بمحو الأمية بظلاله على اهتمامات النساء في فضاء سيدي بوجمعة من حيث إثارته ليس كمعلومة عابرة، وإنما باعتباره حيويًا بالنسبة للنساء المبحوثات رغم تردد بعضهن في الانخراط في هذا المسعى ("تشجعت للانضمام...") تقول إحدى المبحوثات)، ورغم اقتصاره على ما يبدو على نسوة ينتمين إلى فئات اجتماعية متوسطة.

خاتمة

لقد حاولت هذه الدراسة تقديم صورة عن تجمع نسائي أسبوعي (كل يوم الجمعة) في مقبرة عريقة مع تفاعلاته الاجتماعية المختلفة، كما حاولت الكشف عن بعض خصوصياته وبعض تفاصيل المعاش الاجتماعي والثقافي المحلي. لقد بينت أيضا مدى عمق الروابط الاجتماعية النسائية المتجذرة وعلى كيفية تأكيدها معياريا ووظيفيا ضمن مناخ اجتماعي يعج بالحركة ومفتوح على استغلال الحيز المكاني، أي فضاء سيدي بوجمعة، ليس من خلال وظائفه التقليدية الظاهرة (زيارة الموتى وضريح الولي)، بل من خلال وظائف أخرى، كامنة، تلبى حاجات أخرى لهؤلاء النسوة، حاجات نفسية، اجتماعية بل واقتصادية أيضا. بينت هذه الدراسة أيضا أهمية الأخذ بعين الاعتبار السياقات المحلية عند تناول مفاهيم مثل مفهوم "الفضاء العمومي". هذه السياقات لها خصائص تاريخية، اجتماعية وثقافية لا يمكن تجاهلها من أجل فهم أفكار وسلوكات

الأفراد المنخرطين في تشكيل هذا الفضاء العمومي. وهذا ما حاولنا عرضه من خلال وصف تجمّع النسوة بفضاء سيدي بوجمعة. أخيرا تعبر هذه الحالة المدروسة عن جانب من التغيرات الاجتماعية التي يشهدها المجتمع الجزائري اليوم. ففضاء سيدي بوجمعة مثال عن حقل اجتماعي يجمع بين ممارسات اجتماعية تقليدية وأخرى معاصرة للنسوة المترددات على هذا الفضاء، لكن دائما ضمن التقسيم الاجتماعي السائد للزمان والمكان بين الرجال والنساء.

ببليوغرافيا

1. باللغة العربية

نابتي، علي (2008)، أشكال الاتصال النسوي في الفضاء المقدّس بمنطقة عين الصفاء، رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

2. باللغة الفرنسية

- Berdoulay, V. (2004), *L'espace public à l'épreuve : régressions et émergences*, Pessac, France, Éd. MSHA.
- Dermenghem, É. (1954), *le culte des saints dans l'islam maghrébin*, Paris, Éd. Gallimard.
- Eberhardt, I. (2002), *Sud Oranais*, Composées par Marie Odile Delacour et Jean-René Huleu, Paris, Éd. Joëlle Losfed.
- Goffman, E. (2008), *Les Rites d'Interaction*, (rééd.) (1974), traduit par Alain Kihm, Paris, Éd. de Minuit.
- Milton, S. (1997), *La nature de l'espace*, traduit par Marie-Hélène Tiercelin, Paris, Éd. L'Harmattan.
- Monographie de la Wilaya de Naâma (2005), *situation des zones à expansion touristique*.
- Monographie du Cercle d'Ain Séfra (1949), *le culte à Moghrar Fougani*.
- Quééré, L. (1995), *L'espace public comme forme et comme évènement*, Paris, Éd. R. Plan Urbain.
- Roux, Ch. (2003), *Isabelle du désert*, Paris, Grasset Edmonde.